

ثقافتنا والاهتمام بالمعنى

يَتَّفَقُ أرباب الفكر على القول إنَّ ثقافتنا الشرقيَّة، بمختلف تياراتها وبأبعادها الجغرافيَّة والفكريَّة، تهتمُّ بالمعنى اهتمامًا كبيرًا، حتَّى لو كان ذلك على حساب المبنى، وهذا الأخير هو في خدمة المعنى، خدمة القصد والمدلول والمضمون. هذا الاهتمام بالمعنى يصل أحيانًا إلى حدود المغالاة، وكأنَّ الكلمات والأشياء والوجود بأكمله هي مصدر قلق ومعاناة، فتدفع بالإنسان إلى التعلُّق بالمضمون أو المقصود، لأنَّ فيه الخلاص المنشود.

ولأنَّ ثقافتنا الشرقيَّة ليست مفهومًا جغرافيًا فحسب، ولأنَّها تصوِّر لمعير الكائن والوجود، فإنَّها عبَّرت، وتعبَّر عن المعاني الأساسيَّة، عن الخير والجمال والحقِّ والكمال، بلغة الأساطير والأشكال الرمزيَّة وبرؤية تأمُّليَّة للأشياء. ولأنَّ المعاني هي التي تسبق المولود وترافقه، فإنَّ نوعًا من الانفعاليَّة، والتيهيُّز بقوده في الحياة ويعيش الحنين المستمرَّ إلى هذه المعاني. إنَّه أيضًا الاستسلام للإلهيَّة، الاستسلام الرائق الثابت. إنَّ هذه الثقافة المأخوذة بالمعنى، دون نقاش يُذكر، هي ثقافة الباطن والداخل، الثقافة التي ترى في عالم الأشياء والأحداث تصوُّرًا مجازيًا يميل إلى ما هو ثابت على الأكيد. فالمطلوب هو التحوُّل الباطني، في ضوء ماجريات أحداث البشر والطبيعة، والتحوُّل الخارجي، التغير على مستوى الدين والدنيا بالأبعاد المعروفة، لا أهميَّة له إلا بوجه نسبي. فالمطلق ليس فعل التاريخ، بل معنى التاريخ.

إنَّها ثقافتنا، وهذا يدلُّ على تعدُّديَّة الثقافات. إنَّها ثقافتنا نستطلعها في هذا المدد من «المشرق» في مقالات عن عمر ابن الفارض، والكرما والترُّع في

قصص جَبَّور عبد النور، والطبيعة والعبادة في بلاد كنعان، وآثار الباقلائي، المنكلم الأشعري الشهير.

وفي طيات دتر الثقافة منذ أكثر من قرنين، دخلت ثقافة إنسانية أخرى، أصبحت هي شيئاً من ذاتيتنا دون أن نستطيع، على صعيد تصوراتنا الفكرية الشاملة، هضمها وإدماجها في إطار حوار صريح مع المعنى. إنها ثقافة الحدائث، التي نتاول بعض فصولها في العدد الحالي، في رباعيتها المعروفة: الفكر النقدي، الإنتاجية، التكنولوجيا والاستهلاك. هذه الثقافة هي اليوم يتنا، في نوادينا الثقافية وجامعاتنا ومدارسنا، نرغب فيها كمستهلكين ونرفضها كمنطق جديد يهدد ثقافة المعاني. هي في الواقع بحاجة إلى المعاني وإلى أناس يتعلقون بالمعاني ولا يهتمون بالإنتاجية وصنع التاريخ.

الحدائث هي عصر جواز السفر (شاتوريان).

إنّ الوضع الأمثل للحوار، لتصوّر ثقافي، ضمن الثقافة، لعلاقة جدلية بين ثقافة المعنى وثقافة الحدائث، يمكن أن يكون تصوّراً نموذجياً للبناء الحضاري المنشود.